سرد

عناية جابر: الشعر أصغر من بيروت

جمال جبران

في محبّة المُدن، يكتب الشعراء قصائد وأغنيات... المدن التي خُلقوا فيها، أقاموا فيها زمناً من حياتهم، طال أم قصر. لا تُحسب محبّة المُدن تلك بكمّية الوقت الماضي، بل بأمر وقوع الغرام بين الطرفين من عدمه وقد يحصل الغرام من نظرة. لكن من الشعراء مَن يحط القصيدة جانباً، ليبحث عن قالب مختلف ليحكي فيه عن تلك المحبّة التي في قلبه لتلك الأمكنة.

على هذا، نجد أنّ «لا أحد يضيع في بيروت» (الحركة الثقافية في لبنان) للشاعرة والكاتبة اللبنانية الزميلة عناية جابر ظهر بلا تصنيف محدّد على غلافه باعتباره وثيقة أرادت الشاعرة من خلاله الحكي عن مدينتها بلا قواعد أو قالب شعري قد يعمل على محاصرة وتحديد حجم البوح والعتاب الذي تود قوله. هذا على الرغم من النَفس الشعري الذي يأتي على نحو تلقائي في جملتها التي تبدو في سياق «قصيدة مكتوبة باللحم». ولذلك تبقى «أقوى من الفولاذ»، لنجد نصوصاً كأنها كُتبت بعيون القلب ولو خطّت عتاباً أو أفصحت عن شكوى من بيروت نفسها «المدينة التي تنام غلط»، وبيروت التي «ليست على ما يرام» لأن «الناس تعيش بلا فرح، الناس وحيدة حتى آخر اليأس، وليس أكثر اقتراباً من الموت، سوى الناس الوحيدة».

هكذا يبدو أن هذه الشاعرة قد تفرّغت لهذا العمل طوال خمسة أعوام بعد «عروض الحديقة» (2011). لم تُصدر جابر هنا شعراً وقد شُغلت بصياغة حكاياتها البيروتية وتفاصيل المدينة التي تعرفها زاوية زاوية وشارعاً وشارعاً، «كأن الشعر أصغر من بيروت».

وفي النصوص نفسها، تبدو فكرة ترك بيروت والانتقال إلى مدينة أخرى مستحيلة لدى هذه الكاتبة، وهي التي ألقت بأوراق السفر والهجرة وراء ظهرها، فكلّما ارتفعت نسبة الناس الذين يتركون «البلد»، ويهربون إلى بلاد الله الواسعة، تقترب صاحبة «أمور بسيطة» من بيروت أكثر. كما أنها انتقلت أخيراً للإقامة في قلب المدينة ولصق شارعها الأهم، كأن الأمر تأكيد من جهتها على استحالة قطع ذلك الخيط الرفيع الذي يربطها بالمكان. مع ذلك تقول لنا شاعرة «لا أخوات لي» إنّ بيروت مؤلمة، «تؤلمنا بالفعل، آلاماً خفيفة، وخزات مُعذِبة»، لكنّها «سرعان ما تزول، وليست الآلام التي تجعلنا نهجرها».

ولنا أن نلمس في نصوص الكتاب شكل اليوميات المنشغلة برصد أحوال المدينة بشكل دائم وحركة الناس داخلها عبر تقاطعها مع كل ذلك، وتحويلها إلى نصوص حيث كل نص يحتوي على فكرة ومعنى.

لعل هذا يُفسر وجهة نظر جابر حول مسألة البقاء في البيت واعتبارها «فكرة فاجرة» لأنّه «لا يمكنك حقاً في بيروت أن تبقى في البيت».

شُغلت بصياغة تفاصيل المدينة التي تعرفها زاوية زاوية

ومن خلال فكرة الخروج تلك وعبر توقيت صباحي مضبوط، تكون الفرص متاحة لتكوين المادة اللازمة لإنتاج النصوص التي تأتي أحياناً وهي تنطلق من أبسط العناصر المكّونة لشكل المدينة لتكتب عنها بالمحبّة ذاتها. «منارة بحر بيروت» مثالاً وهي التي قُصفت بصواريخ إسرائيلية في عدوان تمّوز 2006 تقول عنها «كأن ينقص أن يقصفوا المنارة حتى لا تعود السفن تهتدي، حتى لا أعود أهتدي». وفي سيرة الحرب الإسرائيلية نفسها، سنجد أكثر من نص وهو يوّثق لما حصل في عدوان الـ33 يوماً و«بيروت التي تتدرب على التنفس ثانية».

وخلال كل هذا، تحكي صاحبة «استعد للعشاء» عن ناس بيروت، من تعرفهم ومن تضعهم المصادفات ليتقاطعوا مع يومياتها، فتروح صانعة من كل واحد منهم حكاية. هناك ذلك الأعمى الذي «يقرأ ويُشاهد أفلاماً»، والتقته على باب مكتبة تقع في شارع قريب من البحر لتكتشف كم أنه قد «امتلك جرأة الاقتراب من السعادة»، أو تستعيد ألم الصديقة التي استأصلت ورماً من صدرها وستأتي، بعد الشفاء، إلى موعد أول معها «بعرج خفيف جرّاء قطعة اللحم الناقصة التي انتُزعت من صدرها إلى الأبد».

ليس كل الكتاب عن بيروت وإن كان أغلبه عنها. مع ذلك، سنجد ذلك الباقي منه كما لو كانت صاحبته تبحث عن ثغرة لتحكي عن مدينتها التي «لا يضيع فيها أحد». هي حين تحكي عن باريس أو القاهرة مثلاً، نجد هذه الخبيرة في الطرب العربي وقد أحيت حفلات عدة في دار الأوبرا المصرية. نراها توازي المعنى الذي قالته المطربة أم كلثوم حين غنّت «ولما أشوف حد يحبّك يحلى لي أجيب سيرتك ويّاه». إنها هنا تعمل على اختراع ولو حتّى ثغرة صغيرة كي تدخل منها لتعاود الحكي عن المدينة التي تعرفها «عن ظهر قلب». وعلى العكس من مدن كثيرة يضيع زائرها إن لم يحمل خريطة، لا يحتاج الواحد في بيروت إلى خرائط، فهناك وعلى طول الخط منافذ إلى ما تريد الوصول إليه و«حلول تظهر في الأفق».

سوق الكتاب

سوزان هاوثورن: لا عزاء للناشر المستقل؟

خليك صويلح

لم تغفل طاحونة العولمة سوق النشر من هيمنتها المتوحّشة، إذ عملت باكراً على تصدير نمط محدّد من الكتب، خصوصاً تلك التي تفتقد الأصالة، وتلك التي لا تحمل أي مخاطرة لجهة الابتكار، ذلك أن دور النشر العملاقة تقاوم المختلف وتسعى إلى تسطيحه، وجعل كل المنتجات الثقافية منتجاً ذا قياس واحد يناسب الجميع. وإذا بخط إنتاج الكتب يشبه «خط إنتاج الثياب الداخلية النسائية».

في كتابها «التنوّع البيبليوغرافي: بيان في النشر المستقل» الذي صدر عام 2014 (الرابطة الدولية للناشرين المستقلين- ترجمة بلال زعيتر)، تفضح سوزان هاوثورن آلية تخريب صناعة النشر وكيفية تحطيم الهوامش لمصلحة نوع واحد من الكتب، تلك التي تقع في باب «الأكثر مبيعاً» وإزاحة كل ما عدا ذلك عن واجهات المكتبات، فهي تضع هذا التخريب الثقافي المتعمّد في مقام التخريب البيولوجي للطبيعة على حساب التنوّع والتعددية.

هكذا تتحوّل الكتب إلى نوع واحد من «الطماطم» بلا نكهة، فدور النشر الكبرى ومتاجر الكتب تعنيها الأرقام فقط، غير عابئة بسماع الأصوات المختلفة، أو تخصيب التربة الثقافية وتشجيع تنوّع الحالات المعرفية. وهذا ما ينبغي أن تنهض به دور النشر المستقلة رغم ضراوة دور النشر العملاقة في تغييب التوازن البيئي لصناعة الكتب. «قياس واحد للجميع» هو الشعار العمومي لنظام النشر العالمي. التجانس يؤدي إلى إنتاج بعض الكتّاب النجوم الذين يعتمدون أفكاراً بائتة «لكنها سُقيت، وجُعلت سائغة لذوق عام لقرّاء موحّدين».

أفكار يعاد بيعها كما لو أنها أفكار أصلية، وإذا بالقارئ حيال كتب مبهمة، متشابكة النصوص، كثيرة الأخطاء، فارغة وتبسيطية، كمحصلة لخراب اللغة العامة. تنبّه الباحثة الاسترالية إلى ضرورة الاعتناء بالتربة البريّة لإنتاج إبداع برّي متنوع وتعدّدي خارج السائد، يقطن في الهوامش اللغوية والجغرافية. على المقلب الآخر، تكمن معضلة أخرى تهدّد تنوّع النشر، هي تخمة النشر، والمركزية المالية في عالم صناعة الكتب الذي تتفرّد به حفنة من دور النشر الكبرى، وابتلاعها كل ما يتعلّق بالهويات البيئية الأخرى، إذ تهيمن اللغات الاستعمارية على ما عداها في تصدير ثقافاتها. لن نستغرب إذاً، أن تتصدّر ثقافة التعرّي بعض دور النشر الصغيرة بقصد الاستمرار وطباعة كتب أخرى مثيرة للاهتمام، فيما تعمل الشركات الكبرى بميزانيات ضخمة لتصدير هذا النوع من الثقافة المسلية متجاهلةً التصنيف الأحادي الذي تفرزه هذه الثقافة تجاه النساء خصوصاً، وتالياً إطاحة المفاهيم النسوية في الفضاء العام. لكن كيف تتوازى التجارة الحرّة مع حرية التعبير؟ تجيب سوزان هاو ثورن بأن ما يحدث فعلياً يقع في خانة التضليل اللغوي، فقد تجلّت «صناعة الدعارة»، ومشاهد التعرّي كمدافع عتيد عن حريات التعبير، لكن الواقع يؤكد مفهوماً آخر هو «حرية استغلال الجسد» كبضاعة رابحة، فتعبير «تجارة حرّة»، يقود إلى «تعبير حر»، لكن في تفضيل القوة، وتعزيز الظلم، والتركيز على الفرد، وبذلك تختفي «عدالة التعبير» التي يسعى وراءها الناشرون المستقلّون الذين يقومون بنشر مؤلفات «الأصوات المُخاطرة، المُبتكرة، الجدلية، المُهمّشة، والمُتخَيّلة».

الشركات الكبرى تُغرق العالم النامي بالكتب السهلة والرائجة

تفاؤل اللاعبين الصغار بالثورة الرقمية لجهة فرص النشر، لم يدم طويلاً، وفقاً لما تراه الباحثة، ذلك أنّ دور النشر العملاقة تمكّنت من إعادة استعمار اللغات المستعمَرة سابقاً، في محاولة لوأد الهويات المحليّة ومنع الثقافات المحرّمة لمصلحة لغة كاسحة استحوذت على كل مفاصل عملية النشر بما فيها «النشر الذاتي». شركة «أمازون» للتوزيع مثلاً، فرضت شروطاً قاسية على الناشرين والمؤلفين في التحكّم بالنشر الإلكتروني، وربما لهذا السبب دعت الروائية آروند هاتي روي إلى «مواجهة الإمبراطورية»، ومحاصرتها وتجريدها من الأوكسجين، و«وسمها بالعار» عن طريق «استراتيجية تعيد لنا قدرتنا على رواية قصصنا الخاصة، قصص مختلفة عن القصص التي تُغسل بها أدمغتنا لتصديقها». كأن استعمار السوق هو الضفة الثانية لاستعمار العقول. أمام هذه المطحنة الرقمية، لا عزاء للنشر المستقل، تبعاً لأفكار سوزان هاوثورن إلا بالنشر المشترك، بتعاضد دور نشر صغيرة لمواجهة ثقافة الزي الموحّد، وبذلك «يتكاثر الناشرون الصغار بين الناشرين العملاقة كالنباتات الخضراء الصغيرة التي تنمو من شقوق إسمنتية، من خلال التشبيك والتواصل واستثمار النشر الرقمي في استقطاب جيل جديد من المؤلفين والقرّاء، بعيداً عن استحواذ الشركات الكبرى التي تُغرق العالم النامي بالكتب السهلة والرائجة، بطريقة تُشبه إغراقه بالمنتجات التي يرفضها الغرب، كالسجائر والأدوية الخطيرة (وربما كتب باولو كويلو ودان براون وروايات «عبير»). الوصفة النهائية لهذا الكتاب تتمثل في ضرورة التنوع الحيوي البيئي، ليس في الطبيعة فحسب، بل في صناعة الكتب وتعدّد عناوينها ولغاتها وأفكارها، وخلق ثقافة قادرة على البقاء بصيغ متعدّدة في مواجهة عمليات تذويب ثقافة الهوامش. لكن ماذا لو فكّرنا بمحتويات واجهات المكتبات العربية، ومنتجات «دكاكين النشر» في الشوارع الخلفية؟ على الأرجح، سنجد كمية «الطماطم» نفسها على هيئة روايات بتوابل عاطفية، وكتب تبشّر بعذاب القبر، وفتاوى الحلال والحرام، وأمراض مستعصية لشعراء تسللوا من مواقع التواصل الاجتماعي. يا لها من مجزرة!